مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٣٠ع٦ ص ص: ٣١٩- ٣٤٨ (٢٠٢٢م)
DOI:10.4197/Art.30-6.11

خُلاصة علم البيان عند ابن الأثير

د. بدر بن طاهر الطرقي العنزي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد في جامعة الحدود الشمالية
قسم اللغة العربية بكلية التربية والآداب
جامعة الحدود الشمالية

مستخلص. تنطلقُ فكرةُ الدراسة من رأيٍّ نقدي، وحكمٍ علمي أصدره ضياءُ الدين ابن الأثير في كتابه **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** عند حديثه عن النوع الرابع من أنواع الصناعة المعنوية، وهو الالتفات، فقد قال: " وهذا النوع وما يليه هو **خلاصة علم البيان** التي حولها يُدندَن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن "، والنوعان المقصودان من هذه المزايا العلمية والنقدية التي ذكرها ابن الأثير، هما: الالتفات، والتوكيد بالضميرين، وهما نوعان يرى ابن الأثير أنَّهما خُلاصة علم البيان، وأنَّ علم البيان يدندنُ حولهما، وأنَّ البلاغة تستندُ إليهما، وعليهما تدورُ مباحث البلاغة الأخرى. وهذا الحكم النقدي القطعي من عالمٍ كبير، وبلاغيٍّ دقيق، وناقدٍ معتبر يستحق العناية والاهتمام، وإعادة النظر في أصول الحكم ومرجعياته النظرية والتطبيقية، وتبيين مدى التزامه به في اختياراته وتقريراته وأحكامه وتعليقاته.

وبهذا تقوم فكرة الدراسة على اختبار هذا الحكم النقدي، والرأي البلاغي، وتبيّن الأسباب التي دفعت ابن الأثير إلى إطلاقه، والاحتجاج له، والوقوف على أثره في منهجه واختياراته، والعمل على قراءة هذين النوعين قراءةً بلاغيةً أسلوبيةً تُبرز المنهج المتبع، وتُظهر مدى دقة الاختيار، وتُناقشُ الأحكام الواردة فيهما، مع محاولة الوصول إلى أسرار تفردهما عن بقية أنواع الصناعتين اللفظية والمعنوية المذكورة في كتابه. ويبرز هذا الجزء –محطُّ الدراسة– بعض ملامح التفكير البلاغي عند ابن الأثير، ومدى اطراد المنهج عنده، مع إظهار جوانب الأثر والتأثير في المنهج والأسلوب والتحليل والاختيارات التطبيقية.

الكلمات المفتاحية: خُلاصة، علم البيان، ابن الأثير.

المقدمة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ الدرس البلاغيَّ متجددٌ بتنوع مناهج دراسته، وتباين مداخل قراءته، واختلاف مسالك الباحثين في إعادة النظر في تقنيات تحليله، والوقوف على بعض الجوانب المسكوت عنها لدراستها دراسةً علميةً تتسمُ بالمنهجية، وتتصفُ بالدقة، وتمتازُ بالتنقيب استجابةً لمقصدية إعادة قراءة التراث البلاغي من زوايا مختلفة، وبأدوات متنوعة إعادةً تستهدف الوصول إلى نتائج علمية جديدة، والكشف عن بعض جوانب البلاغة الغائبة، واستجلاء وجوه البلاغة المسكوت عنها في التراث البلاغي والنقدي، وفي حقول المعرفة الإنسانيّة.

ومن علماء العربية الكبار الذين بذلوا جهودًا متميزةً تنظيرًا، وتطبيقًا، ومراجعةً في الحقل البلاغي والنقدي ضياء الدين ابن الأثير الذي يعدُّ كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر من عيون المصادر البلاغية المعتمدة، والمراجع النقدية المؤثرة في الجانبين النظري والتطبيقي. بل إنَّ مرحلة الكتاب تعدُّ من المراحل المهمة في تاريخ التأليف البلاغي؛ للأثر الذي تركه للبلاغيين والنقاد بعده مرجعًا ومراجعةً، ولاستثماره المؤلفات البلاغية والنقدية التي سبقت مؤلفه بالقراءة والتحليل والمراجعة، والاتفاق في مواضع، والاختلاف في أخرى(١).

إضافةً إلى ما يمتازُ به هذا الكتاب من مزايا وخصال كثيرة كان أثرها عميقًا في إغناء التفكير البلاغي والنقدي؛ فإنَّ أكثر ما يُحمد له أنَّ فيه معالم الأصالة والابتكار، وآثار الشخصية العلمية التي تُميّز صاحبها عن غيره من البلاغيين والنقاد. وليس أدلّ على ذلك من الأحكام النقدية والبلاغية التي نطق بها في تضاعيف كتابه مميزًا بين الأساليب، ومختارًا ومفرّعًا، ومرجحًا ومستشهدًا. وبهذا كله اكتسى المثل السائر خصوصيته البلاغية والنقدية في المنهج والأسلوب والتحليل، وطريقة المعالجة، والاختيارات والنتائج، وكذلك في حرصه على إصدار الأحكام النقدية، والحكم على المباحث البلاغية، وإلحاحه على ظهور شخصيته في المسائل التي تناولها في كتابه.

لذلك يرى بعض الدارسين أنَّه من الواجب العودة إلى كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر عودةً الغرضُ منها الوقوف على أصالة موضوعاته، وتبيّن ملامح منهج ابن الأثير في معالجتها، وهذا ما يتسق مع مالمسناه في مواضع كثيرة من المثل السائر من ميل صاحبه إلى الردِّ على سابقيه ومجايليه من المفسرين والبلاغيين والنقاد، وإطلاق الأحكام النقدية على مضامين كتبهم ورسائلهم، وهي نزعةٌ كان يرمي من ورائها إلى أن يثبت أنَّ في المثل السائر إضافةً جديدةً، وأحكامًا دقيقة لم يسبقهُ إليها الأوائل.

والواقع أنَّ الدارس لكتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر يدركُ أنَّ مؤلّفه قد أفاد كثيرًا من البلاغيين والنقاد الذين سبقوه، واطلع على أسفارهم. فمن الواضح أنَّ أثرهم في اختياراته وشواهده وتفريعاته ظاهرٌ جلي حتى وإن

---

(١) وهذه من أبرز السمات المنهجية عند ضياء الدين ابن الأثير؛ لأنَّه بنى مؤلفه على فكرة المراجعة والاختيار، وبقيت هذه المنهجية ظاهرةً على المثل السائر من مقدمته إلى ختامه مراجعةً لمن سبقه، وتأكيدًا لما ذهب إليه.

كان يشيرُ إلى عدم رضاه إلا عن كتابين مأثورين، هما: الموازنة للآمدي (ت٣٧٠هـ)، وسرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت٤٢٣هـ)، وهو رضا نسبي؛ لأنّه أخذ عليهما بعض المآخذ في حدِّ رأيه[١].

ومن الإضافات التي حرص ابن الأثير عليها في كتابه ميلُهُ إلى ربط الأساليب البلاغية بوظيفةٍ حجاجيةٍ إقناعيةٍ زيادةً على دورها الجمالي الأسلوبي، ويحاول أن يبيّن أهمية إبراز الفائدة، وظهور الغرض من الأسلوب البلاغي، مما أسهم في تخليصها من طابعها الشكلي والزخرفي المحض.

وبناءً على ماسبق جعلنا هذا البحث مُنصبًا على تتبع حكم ابن الأثير البلاغي، ورأيه النقدي في بابين من أبواب الصناعة المعنوية يراهما خُلاصة علم البيان، ويعني بعلم البيان المفهوم العام الذي يشمل جميع أبواب البلاغة وفروعها. وهذا الحكم النقدي القطعي جديرٌ بالدراسة والتأمل والتقصي والاهتمام سعيًا إلى بيان دقة الحكم، والكشف عن بواعثه، وأسباب إطلاقه، والأبعاد الكامنة وراءه.

أسباب اختيار الموضوع:

١_ حكمُ ابن الأثير على النوعين من أنواع الصناعة المعنوية بأنهما خُلاصة علم البيان، ولا شكّ أنَّ لهذا الحكم قيمته ودلالاته، مما يجعله جديرًا بالعناية والاهتمام تتبعًا واستقراءً ومراجعةً ومناقشةً.

٢_ حكم ابن الأثير أنَّ الالتفات شجاعة العربية، وأنَّه يختصُّ باللغة العربية دون غيرها من اللغات الأخرى.

٣_ لأنَّ ابن الأثير ذكر أنَّ الالتفات وتوكيد الضميرين تستندُ إليهما البلاغة، وهذه خصوصيةٌ لم يذكرها إلا في ارتباطٍ بهذين الأسلوبين دون غيرهما من الأساليب البلاغية المتعددة التي ذكرها في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.

٤_ المفارقة بين الأسلوبين، وهما الالتفات وتوكيد الضميرين؛ لأنَّ الأول محلّ عناية البلاغيين، والثاني محلُّ عناية النحاة؛ فكانت هذه المفارقة من الأسباب الدافعة إلى اختيار الموضوع ودراسته، ومحاولة الكشف عن أوجه الترابط بين ذينك الأسلوبين، واستجلاء وشائج الاتصال الجامعة بينهما.

٥_ إبراز بعض سمات التفكير البلاغي عند ضياء الدين ابن الأثير من خلال اللغة والأسلوب والشواهد والتحليل، وطريقة المعالجة.

أهداف البحث:

١_ الوقوف على سرِّ اختيار ابن الأثير لأسلوبي الالتفات وتوكيد الضميرين؛ ليكونا خُلاصة علم البيان عنده.

٢_ تحليل رأي ابن الأثير في أنَّ الالتفات شجاعة العربية، وأنَّه يختصُّ باللغة العربية دون غيرها من اللغات الأخرى.

---

(١) هذه فكرةٌ بحثيةٌ صالحةٌ للدراسة والاختبار، وهي معايير الحكم على المؤلفات البلاغية والنقدية عند ابن الأثير، وكذلك دراسة أثر الآمدي وابن سنان الخفاجي على ابن الأثير تنظيرًا وتطبيقًا.

٣_ دراسة الأسباب التي دفعت ابن الأثير إلى عدِّ الالتفات وتوكيد الضميرين سندًا للبلاغة، ومرتكزًا لا تتجدُ بمعزلٍ عنهما.

٤_ تبيّن طبيعة العلاقة بين الدرسين النحوي والبلاغي، وتأثيرهما في توجيه ابن الأثير إلى عدِّ الالتفات وتوكيد الضميرين خلاصة علم البيان.

٥_ محاولة إبراز بعض سمات التفكير البلاغي عند ضياء الدين ابن الأثير من خلال اللغة والأسلوب والشواهد والتحليل، وطريقة المعالجة.

أسئلة البحث:

١_ لماذا اختار ابن الأثير الالتفات وتوكيد الضميرين للحكم عليهما بأنَّهما خُلاصة علم البيان؟

٢_ ما وجاهة رأي ابن الأثير في أنَّ الالتفات شجاعة العربية، وأنَّه يختصُّ باللغة العربية دون غيرها من اللغات الأخرى؟

٣_ ما سرُّ استناد البلاغة إلى الالتفات، وتوكيد الضميرين حسب رأي ابن الأثير؟

٤_ ما العلاقة التي أقامها ابن الأثير بين النحو والبلاغة انطلاقًا من الالتفات وتوكيد الضميرين؟

٥_ ما سمات التفكير البلاغي عند ضياء الدين ابن الأثير من خلال اللغة والأسلوب والشواهد والتحليل، وطريقة المعالجة؟

٦_ ما الرؤية البلاغية التي يُؤسّسُ لها ابن الأثير من خلال معالجته لذينك الأسلوبين؟

الدراسات السابقة:

الدراسات التي وقف عليها الباحث تدورُ على الالتفات عند البلاغيين عامة، أو دراسته عند ابن الأثير دراسةً تقعيديةً تعليميةً خالصة، ولم يقف –في حدود اطلاعه– على دراسةٍ تُعنى بالحكم الذي أطلقه ابن الأثير على الالتفات وتوكيد الضميرين بأن جعلهما خُلاصة علم البيان، وهذا هو موضوع دراستنا هذه.

منهج البحث:

اعتمدتُ المنهج الاستقرائيَّ القائم على استنطاق النصوص؛ للوصول إلى النتائج، مع الاستفادة من المنهج البلاغي في التحليل والبيان والمعالجة.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمةٍ، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس على النحو الآتي:

المقدمة: وتتناول فكرة الدراسة وأهميتها، وأسباب اختيار الموضوع، وحدود الدراسة وأسئلتها، وأهداف البحث، ومنهج الدراسة، والدراسات السابقة، وخطة البحث، وتصوره الإجرائي.

التمهيد: منهج ابن الأثير البلاغي.

المبحث الأول: بلاغة ابن الأثير بين القاعدة والذوق، وفيه:

أولًا: بلاغة التحليل القرآني عند ابن الأثير.

ثانيًا: بلاغة التفريع عند ابن الأثير.

ثالثًا: بلاغة الخطاب ومراعاة الذوق عند ابن الأثير.

المبحث الثاني: ابن الأثير والأحكام النقدية والبلاغية، وفيه:

أولًا: بلاغة التوصيف والتسميات عند ابن الأثير.

ثانيًا: بين ابن الأثير والزمخشري.

المبحث الثالث: الالتفات وتوكيد الضميرين بين النحو والبلاغة.

المبحث الرابع: قيمة البابين في البيان والفصاحة.

الخاتمة: وفيها أهمُّ النتائج التي توصّل إليها الباحث، والتوصيات العلمية المقترحة.

فهرس المصادر والمراجع.

التمهيد

المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر مصنفٌ موسوعي ينمُّ عن ثقافة ابن الأثير الواسعة في القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشّعر والنّثر، والتفسير والبلاغة والنقد على حدٍّ سواء. وقد مكّنته هذه الثّقافة من الإحاطة بمباحث أدبية ونقدية وبلاغية، وجعلتْ كتابه مَعرِضًا لما انتهت إليه مصطلحات البلاغة والنّحو والصرف والعروض بعد استقرارها، وفرصةً للمقارنة بين المؤلّفات التي تنتمي إلى حقلٍ معرفيٍّ واحد، ومجالاً لتحديد المفهومات الأدبية والنّقديّة في القرنين السّادس والسّابع الهجريّين.

بيد أنَّ أهميّة المثل السّائر تنبعُ في تقديرنا قبل أيّ شيء آخر من محاولة ضياء الدّين ابن الأثير الجمع بين الأدب والبلاغة والنّقد في مستوى واحد، هو مستوى العلاقة بين الإبداع ونقده؛ فالقواعد النّحويّة والصّرفيّة والبلاغيّة لا تُذكر في هذا الكتاب من أجل عرض تعريفاتها وحدودها ومفاهيمها، بل أساسًا من أجل إظهار مكانتها في الممارسة الأدبيّة الإبداعيّة، والممارسة النّقديّة[(١)]، والتوصل إلى تبين مختلف العلاقات المعقودة بين ما هو أدبي إبداعي وماهو نقدي. وتؤكد هذه المزية للكتاب خصوصيته التأليفية، وتميّز شخصية ابن الأثير في دراسة المباحث البلاغية والنقدية والأدبية في مستوى واحد، مع بيان الرأي العلمي، وإصدار الأحكام النقدية، ومناقشة البلاغيين والنقاد موافقةً ومراجعةً، مع الحرص على التعليل والاستشهاد والتمثيل. لذلك "عُرف كتاب المثل السائر في بيئات

(١) وهذا الذي قام به ضياء الدين ابن الأثير عند معالجة موضوع توكيد الضميرين؛ فقد حاول معالجة الموضوع في المستوى الإبداعي؛ لإبراز الجوانب البلاغية والنقدية في موضوعٍ أصله نحوي.

الثقافة العربية على أنَّه كتاب أدب، وعُرف كذلك على أنَّه كتاب في أصول البلاغة العربية أحيانًا، وعلى أنَّه كتاب في النقد الأدبي أيضًا"(١).

فلهذا السبب لم يكتفِ ابن الأثير بجمع آراء سابقيه وتصنيفها، بل راح يناقشها، ويدلّ على مواطن الجودة والرّداءة فيها، وقد ساعده على ذلك جَمْعهُ بين موهبتين: موهبة الكتابة الإبداعيّة، وموهبة النّقد الأدبيّ؛ إذ هو كاتبٌ وناقدٌ في آنٍ معًا، وما كتابه المثل السّائر إلا تعبيرٌ عن الموهبتين كلتيهما؛ فقد نقد في هذا الكتاب نصوصَ سابقيه والمعاصرين له، ولكنّه لم يقتصر على ذلك، بل أورد نصوصًا من تأليفه ليُقدِّم للقارئ مثلاً أعلى للنّصوص الأدبيّة يخلو من السلبيّات التي انتقدها في تضاعيف تحليلاته. ثمَّ إنَّه كان يقارن أحيانًا بين نصوصه ونصوص سابقيه ومعاصريه؛ ليُحقّق الهدف نفسه، أو يوحي به. وهذا ما يتجلى في خلافه مع الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في جمالية الالتفات، وأغراضه البلاغية، مع إطنابه في تحليل الشواهد القرآنية والشعرية إطنابًا الهدفُ منه تأكيد رأيه، وبيان صحة اختياره، وجودة مذهبه.

وعلى الرغم من أنَّ اعتداد ابن الأثير بنفسه قد جعله يُبخّس نصوصًا كتبها سابقوه ومجايلوه، فإنَّ ذلك لم يُعدم محاولته الرّائدة في رفد آرائه النقدية بشواهد يتوافرُ فيها الجمال الفنّيّ، والصنّعة المحكمة. وهذا ما يجعل القارئ المعاصر يفيدُ من المثل السّائر في تنمية تذوقّه للنّصوص الأدبيّة، وفي التّزوّد بالمهارات النّقديّة الأساسية كالتحليل، والموازنة، والاستدلال، والتّعليل، والاستنتاج، وفي الاطّلاع على تجربة نقديّة تنطلق من شكل التّعبير، ولكنّها تجعل شكل المحتوى يتحكّم في أنواع الدّلالات ومظاهرها.

لذلك فإنَّ من شأن الدراسة الموضوعية أن تُظهر جوانب تميّز فيها ابن الأثير في مناقشة البلاغيين والنقاد من جهة، وأن تُبرز مواضع كان الآخرون فيها أقرب إلى الصواب، وأدخل في السمت البلاغي والنقدي المعهود من جهةٍ ثانية.

ومع ذلك يجب أن نشير إلى صدور ابن الأثير عن رؤيةٍ خاصة لعلم البيان، وثقافة المشتغل بصناعة البلاغة، وأهمية تمكّن الأديب للوصول إلى الأهداف المنشودة منه تنظيرًا وتطبيقًا. وهذا ما يفسّر مغالاة ابن الأثير في الإشادة بثقافة الأديب متى كانت ثقافةً لا حصر لمواردها، لأنَّ البيان عنده شأنه شأن الجمال، بلا نهاية أو حدٍّ(٢)، ولذلك يرى أنَّ صاحب البيان يجب أن يكون على معرفة واعية باللغة، وثقافة العرب، وأن يكون ذا نظرةٍ عميقة في القرآن الكريم، والسنة النبوية، والشعر العربي، والأدب بأجناسه المتعددة.

---

(١) ابن الأثير، ضياء الدين، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، دون طبعة، مصر، نهضة مصر، (٢٠/١).

(٢) ينظر: ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (٦/١).

وتشبيهُ البيان بالجمال لبيان تنوع مدارس البيان، واختلاف مناهجه وتشكلاته، وتباين الآراء حوله؛ لأنَّ الجمال مختلفٌ في عيون المتلقين، ومتباينٌ في رؤية البشر. والذي يريد أن يؤكده ابن الأثير من ذلك أنَّ صناعة البيان صناعةٌ عميقة، تحتاج العلم والذوق والتأمل والتدبر؛ للوصول إلى الغاية المنشودة، ولتحقيق الأهداف المأمولة.

ولا شكَّ في أنّ معاصري ضياء الدين ابن الأثير قد تلقّفوا كتبه، فأعجبوا بها أو سخطوا عليها، وراحوا يؤلّفون كتبًا في الثّناء عليها، أو الحطّ من شأنها. وقد استمرّ الاهتمام بصاحب المثل السائر إلى أيّامنا هذه. وليس أدلّ على ذلك مما كتبه الباحثون المعاصرون من أبحاث ودراسات تنصبُّ على تفكير ابن الأثير في الاتجاهات النقدية والأدبية والبلاغية تمثلًا واستكشافًا ومساءلةً. وما بحثنا هذا إلا محاولة أخرى في دراسة حكم نقدي أصدره ابن الأثير، وسعى إلى استنطاقه، واستجلاء أبعاده البلاغية والنقدية.

المبحث الأول: بلاغة ابن الأثير بين القاعدة والذوق:

المتأملُ في كلام ضياء الدين ابن الأثير في المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر عمومًا، وفي كلامه في الالتفات وتوكيد الضميرين خصوصًا ينتهي إلى أنّه إزاء أسلوب راقٍ، وطرح متميز يشفّان عن عالم جليل، وأديب مبدع، ينتقل من غرضٍ إلى غرض، ومن أسلوبٍ إلى أسلوب، بسبك عالم، وحبكة أديب، ولغة بلاغي. فرغم وعورة المعرفة اللغوية، وخصوصية الأساليب البلاغية فإنَّ ابن الأثير تميّز بلغةٍ خاصة، وأسلوبٍ مختلف، ومعالجةٍ تتسمُ بالخصوصية.

لذلك فإنَّ الرهان هنا معقودٌ على الدراسة الاستقرائية لبابي الالتفات وتوكيد الضميرين من أجل أن تظهر معالم الوضوح في المنهج، وملامح الخصوصية في أسلوب التحليل القرآني، والتوصيف والتسميات، والتفريع والتقسيم، ومراعاة الذوق في الخطاب، وفي إصدار الأحكام والآراء البلاغية والنقدية.

وعلى أنَّ قراءة خلاصة علم البيان في المثل السائر تقودنا إلى استنتاجٍ الحاصلُ منه أنَّ ابن الأثير قد بنى معالجته للموضوع على أمرين:

أولاً: الاطلاع على جهود سابقيه، والعمل على استيعابها، والإبصار بما بينهما من نقاط التقاء، ونقاط تباين/اختلاف، وهذا ظاهرٌ في مقارنته بين المصادر البلاغية، وإطلاق الأحكام عليها، والتمييز بينها أصالةً وابتكارًا، وتقليدًا وإبداعًا حسب رأيه.

ثانيًا: محاولة إضفاء بصمةٍ خاصةٍ على تفكيره البلاغي في عصرٍ تحددت معه أبواب البلاغة وأقسامها وموضوعاتها، ولم يبقَ أمام المتأخرين إلا الالتفات إلى بعض الدقائق والجزئيات التي قد يكون سها عنها المتقدمون بما هو أهم؛ وهذا كان شأن ابن الأثير في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ولا غرابة في أن يلتفت

البلاغيون المتأخرون كابن الأثير إلى جوانب جزئية مما غفل عنه السابقون؛ فلم يفصّلوا القول فيه بفعل انشغالهم بتقنين البلاغة، والتقعيد لأقسامها وموضوعاتها في أبعادها الكلية، وأصولها الكبرى.

ويمتازُ المثل السائر بأنه من أظهر كتب البلاغة جمعًا بين الدراسة القاعدية، والدراسة النقدية[١]؛ لأنّه بنى كتابه على قواعد الفن، مع عنايته الظاهرة بالجانب النقدي، والتحليل التذوقي؛ ليجمع في دراسته بين القاعدة والذوق.

أولًا: بلاغة التحليل القرآني عند ابن الأثير:

ارتبطت البلاغة العربية منذ نشأتها الأولى بالنصّ القرآني؛ ولا غرابة في ذلك مادام هذا النصُّ المعجز قد طرح إشكالاته الكبرى المرتبطة بالتأويل وأوجهه؛ مما جعل الثقافة العربية ثقافة نصٍّ، مثلما يذهب إلى ذلك كثير من المفكرين والدارسين، لذلك لا غرو أن نجد كلَّ العلوم التي نشأت حول الخطاب وفهمه في الثقافة العربية تطوف حول النصِّ القرآني لتأصيل فهمه[٢]، وبهذا كان تطور الدرس البلاغي والإعجازي في ارتباط متين بالقرآن الكريم دراسةً وتنظيرًا وتطبيقًا وتحليلًا عند المفسرين والبلاغيين والنقاد وعلماء الإعجاز.

وما عناية ابن الأثير بالشواهد القرآنية في المثل السائر إلا وجهٌ من وجوه عنايته الخاصة بالكتابة ممارسةً وتنظيرًا؛ فهو يرى أنَّ القرآن الكريم خير معين على تجويد الكتابة، والارتقاء بأساليبها، وتطوير أدواتها. يقول في ذلك: "وإنما تكون نفاسة الأشياء لعزة حصولها، ومشقَّة وصولها...ولقد مارستُ الكتابة ممارسةً كشفت لي عن أسرارها، وأظفرتني بكنوز جواهرها؛ إذ لم يظفر غيري بأحجارها، فما وجدت أعون الأشياء عليها إلّا حَلِّ آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية، وحَلِّ الأبيات الشعرية"[٣]. وهذا الأمر من أسباب إكثار ابن الأثير من الشواهد القرآنية في جميع الأنواع البيانية في الصناعتين اللفظية والمعنوية. ثمَّ إنَّ حرصه على بدء تحليلاته بالشواهد القرآنية، ثمّ إردافها بالشواهد الشعرية يرجع إلى تقديره لخصوصية القرآن الكريم وإعجازه، وإعلائه من دوره في تحقيق رؤيته البيانية من خلال إبراز أساليبه البديعة، وأغراضها البلاغية.

وممّا يراه ابن الأثير في هذا الباب أنَّ المتصدي لحل معاني القرآن محتاجٌ ضرورةً إلى كثرة الدرس والتأمل؛ لأنَّه كلما داوم على درسه ظهر له من معانيه ما لم يظهر له من قبل. وهذا شيءٌ جرَّبته وخبرته، فإني كنتُ آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مرَّ بي معنى أثبته في ورقة مفردة، حتى أنتهي إلى آخرها، ثمَّ آخذ في حلِّ تلك المعاني التي أثبتها واحدًا بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة، وأفعل ما فعلته أولًا، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كلِّ مرة من المعاني ما لم يظهر لي في المرة التي قبلها[٤]، ولا شكَّ في أنَّ هذا المنهج التطبيقي الذي توخّاه ابن الأثير يبرز جانبًا من جوانب خصوصية التحليل القرآني عنده.

---

(١) ينظر: ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١/ ٢١).
(٢) ينظر: مشبال، محمد، (٢٠١٧م)، **البلاغة وأنواع الخطاب**، ط١، القاهرة، دار رؤية، ص ٣٦٦.
(٣) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١/ ١٠١).
(٤) ينظر: المصدر السابق، (١/ ١٣٥).

ويرى ابن الأثير أنَّ حفظ القرآن الكريم، ومعرفة بلاغته وفصاحته، وإدامة النظر فيه وتأمله من أهم الوسائل المعينة على البناء اللغوي، والتمكن الأسلوبي، والإبداع الكتابي، يقول في ذلك: "وأما النوع السادس: وهو حفظ القرآن الكريم، فإنَّ صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفًا بذلك؛ لأنَّ فيه فوائد كثيرة، منها أنه يضمِّن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق. ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة، وأسرار الفصاحة المودَعَة في تأليف القرآن اتخذه بحرًا يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه، كما فعلتُه أنا فيما أنشأته من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلةً وأداةً في استعمال أفانين الكلام؛ فعليك أيها المتوشِّح لهذه الصناعة بحفظه، والفحص عن سرّه[١]، وغامض رموزه وإشاراته، فإنَّه تجارة لن تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يرجع إليه، وذخر يعوّل عليه"[٢].

وكثيرًا ماتجد ابن الأثير يستدلُّ بالقرآن الكريم في تقرير المسائل البلاغية، وعند الاستشهاد على الاختيارات العلمية؛ فكلما ذكر نوعًا، أو عدّد غرضًا، أو أصّل مسألة، أو أثبت رأيًا استمدّ الدليل والشاهد من كتاب الله ﷻ، ثمَّ بدأ بتحليل الآية، وإبراز مكنونها، وإظهار خفيّها، والغوص في بلاغتها بأسلوب متفنن، وبلاغة أصيلة، تجذب انتباه القارىء، وتوسّع مداركه، وفي ذلك دلالة على أنَّ القرآن الكريم هو المثال الأعلى للبلاغة النموذجية عند ابن الأثير[٣]. فمن ذلك مثلًا أنَّه عندما ذكر آيةَ الإسراء شاهدًا على نوعٍ من أنواع الالتفات، بدأ بتوضيح مواطن الالتفات فيها، ثمَّ ذكر كلامًا تفصيليًا في التعليق عليها:" ومما جاء من الالتفات مرارًا على قصر متنه، وتقارب طرفيه، قوله تعالى أول سورة بني إسرائيل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾[٤]، فقال أولًا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ بلفظ الواحد، ثمَّ قال: الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ بلفظ الجمع، ثمَّ قال﴿٦﴾ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾، وهو خطاب غائب، ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان: سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير، وهذا جميعه يكون معطوفًا على أسرى؛ فلمَّا خولف بين المعطوف والمعطوف عليه في الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتساعًا، وتفننًا في أساليب الكلام، ولمقصد آخر معنوي هو أعلى وأبلغ"[٥].

ومن الجلي هنا أنَّ المقاصد المعنوية في الالتفات هي التي يؤكدها ابن الأثير. إذ يرى أنَّ الالتفات ليس للتنويع في أساليب الكلام، وتنشيط السامع فحسب، بل كذلك في كلِّ التفات غرض معنوي يتأكد من خلال الأسلوب

---

(١) يعني: أسراره الإعجازيّة والبلاغيّة؛ لأنَّها تتطلبُ تمكنًا ومهارةً وذوقًا للوصول إلى شيءٍ منها.
(٢) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١/ ٦١).
(٣) جلُّ الشواهد عند ابن الأثير في خلاصة علم البيان قرآنية، وهذا يؤكد ما ذهب إليه الباحث من خصوصية المنهج البلاغي عند ابن الأثير في التعامل مع النصوص القرآنية كثرةً، وأسلوبَ تحليل، ومنهجَ تناول.
(٤) سورة الإسراء، آية:١.
(٥) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١/ ١٣٨).

البلاغي. ثمّ يستمر في تحليل الآية بلاغيًا بقوله: "الذي أسرى، إذ لا يجوز أن يقال: الذي أسرينا، فلما جاء بلفظ الواحد، والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع استدرك الأول بالثاني فقال: ﴿٣﴾ ثمَّ قال: يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ، فجاء بذلك على نسق ﴿٣﴾، ثمَّ قال: نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ عطفًا على أسرى، وذلك موضع متوسط الصفة؛ لأنَّ السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره، وتلك حال متوسطة فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب نائب، فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة التي جاءت لمعانٍ اختصت بها يعرفها من يعرفها، ويجهلها من يجهلها "[١]. فابن الأثير لم يكتفِ عند بيان مواضع الالتفات في الآية بذكر غرض التفنن في الأساليب وتنويعها على عادة معظم سابقيه من البلاغيين والنقاد، وإنَّما بينَّ الأغراض المعنوية التي تؤكد المعنى، وتتناسب مع السياق، مع بيان بلاغة الألفاظ والجمل، والمقارنة مع التركيب لو جاء في غير السياق القرآني. وفي هذا ما يضيء منهج ابن الأثير في تحليل الآيات القرآنية القائم على العدول عن المعنى العام إلى المعنى الخاص، وعن المعنى إلى معنى المعنى، وما هذا المعدول إليه عنده إلا المعاني الثواني التي يؤصّل فكرتها عند تنظيره للأساليب البيانية، وتحليله للشواهد القرآنية والشعرية.

وتطالع في المثل السائر آثار معرفةٍ بكتاب الله ﷻ، وحفظ لآياته، وقدرة عجيبة على استحضارها، والتمثّل بها في كل موضعٍ يريد ابن الأثير أن يتمثّل به بما يوافق آراءه في وسائل الإجادة، وأسباب الإتقان[٢].

ولعلّه من المفيد أن نسوق مثالًا آخر يبيّن لنا فنُّ التحليل القرآني عند ابن الأثير عند تحليله لبعض آيات سورة الفاتحة في حديثه عن نوعٍ من أنواع الالتفات، يقول صاحب المثل السائر: "فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى في سورة الفاتحة: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ[٣]، هذا رجوعٌ من الغيبة إلى الخطاب، وبما يختصُّ به هذا الكلام من الفوائد قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ بعد قوله: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ؛ فإنَّه إنَّما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنَّ الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده؟ فلمَّا كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد؛ لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ، ولم يقل: (الحمدُ لك)، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ فخاطب بالعبادة؛ إصراحًا بها وتقربًا منه -عزَّ اسمه- بالانتهاء إلى محدودٍ منها، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال: صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثمَّ قال: غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ عطفًا على الأول؛ لأنَّ الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه؛ فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفًا عن ذكر

(١) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٣٨/٢).
(٢) ينظر: المصدر السابق، (٣/١).
(٣) سورة الفاتحة، آية: ٢-٧.

الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظًا، وزوى عنه لفظ الغضب تحننًا ولطفًا، فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها[١]، وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب؛ لتعظيم شأن المخاطب، ثمَّ انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضًا؛ لأنَّ مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه؛ فانبغى أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالمًا بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها "[٢].

وتتمثّل معايير جمالية المفردة القرآنية عند ابن الأثير في عدة معايير، منها عيار ائتلاف أحرف الكلمة، وعيار سهولة النطق، وعيار الجدة وعدم الابتذال، وعيار سهولة الفهم وقرب التناول، وعيار ملاءمة المقام، وعيار الرفق في التعامل مع الحس، وعيار جمالية خاصة لبعض الصيغ، وعيار ملاءمة السياق[٣]. وتظهر هذه المعايير بجلاء عند تحليل ابن الأثير للشواهد القرآنية، وهي خصوصية تبيّن منهجه البلاغي، وسمته البياني.

والملاحظ في هذا القول هو توخي ابن الأثير منطقًا مخصوصًا في ترتيب الشواهد، فقد تعمّد أن يبدأ بالشواهد القرآنية ليحللها، ثمَّ يتبعها بالشواهد الشعرية. وهذا خيارٌ منهجيٌّ مقصود ومبرر يتناسب مع منهج ابن الأثير القائم على عنايته ببيان بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، ويؤكد رؤيته المتمثّلة في الاعتداد بالبيان القرآني، وتنزيله في المرتبة الأعلى من مراتب البلاغة.

إنَّ تعامل ابن الأثير مع الشواهد القرآنية تعاملٌ واعٍ بأهمية التأمل والتدبر، وبالحاجة الضرورية إلى إعادة النظر في الآية وسياقها. يقول: "وإذا تأملت مطاوي القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة"[٤]. فدعوة ابن الأثير هي دعوةٌ ترتكز على أهمية تأمل مطاوي القرآن، وتدبر ألفاظه وتراكيبه وأساليبه.

ويرى ابن الأثير أنَّ تحليل النصِّ القرآني، والحديث النبوي، والشعر العربي من أهم الوسائل المعينة على الكتابة. ذلك أنَّ قارئ هذه النصوص اللغوية محتاجٌ إلى أن يتسلح بسلاح اللغة، ويمتلك الحس النقدي البصير[٥].

---

(١) قال الصفدي في نصرة الثائر على المثل السائر: "أقول: أكذا يقال بعد ذكر أسرار القرآن الكريم، وإيضاح غامضه، وما أفاد قوله: المعاني الشريفة، وتأدبه بقوله: تكاد الأقدام تطؤها، وكان الأحسن أن لو قال: فانظر إلى هذه المعاني الشريفة كيف غدت شموسها ضاحية، والبصائر عن إدراك ضيائها لاهية. أو أن يقول: تكاد تيجانها تقع على المفارق، والأذهان عاطلة الجيد من درها المتناسق"، ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، تحقيق: محمد علي سلطاني، (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، **نصرة الثائر على المثل السائر** بدون طبعة، مصر، مجمع اللغة العربية، (٦٩/١).

(٢) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٣٧/٢).

(٣) ينظر: **العاكوب، عيسى بن علي، (محرم ١٩٩١م)، "جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين ابن الأثير"**، اتحاد الكتّاب العرب، المجلد ١١، (العدد ٤٤)، ص ٢٣.

(٤) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٧٤/١).

(٥) ينظر: المصدر السابق، (٨٨/١).

وممّا يرمي إليه ابن الأثير هو التشديد على أنَّ عظمة القرآن الكريم تتمثّل في براعة أسلوبه، وتفوقه على أساليب أرباب الصناعة اللفظية؛ لأنَّ تراكيبه هي التي أكست ألفاظه هذا الحسن القاهر، وذلك الجمال الباهر(١).

ثانيًا: بلاغة التفريع عند ابن الأثير:

التفريع والتقسيم والتجزئة سمةٌ مشتركةٌ بين البلاغيين العرب في القرنين السادس والسابع الهجريين. ولعلّ أكثر من بلغ بهذا المنحى في التصنيف القائم على تفريع الظواهر البلاغية مبلغًا بعيدًا هو السكاكي (ت ٦٢٦)؛ فكأنّه لم يبقَ أمام أعلام القرنين السادس والسابع الهجريين إلا التوجه إلى تقسيم الظواهر البلاغية وتفريعها وتشقيقها حتى يجدوا لأنفسهم موضعًا ما في تاريخ البلاغة العربية، وحجةً تجيزُ لهم التأليف في قضاياها ومسائلها.

والمتأمل في أسلوب ابن الأثير العلمي، وتحليله للمسائل البلاغية والنقدية يكتشف عالمًا عميقًا، وأديبًا بليغًا، وبلاغيًا متمكنًا، ومتفننًا بسرد كلامه، وترتيب فصول كتابه. ومما تجدر الإشارة إليه هو تميزه الواضح الجلي في فنِّ التقسيم؛ فعندما يذكر أنواع الالتفات يبدع في ترتيبها. وعندما يذكر نوعًا، ويريد أن يبين أضربه، يتميز بإيصال المعلومة بتقسيم دقيق، وتشقيق منهجي، فمن ذلك قوله عند حديثه عن الالتفات: "... وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

القسم الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.

القسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي."(٢)

وكذلك في معرض حديثه عن فوائد الالتفات قوله: " ...ثمَّ أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين:

الأول منهما: إجراء تلك الصفات عليه.

والثاني: الخروج من تهمة التعصب لنفسه."(٣). وكذلك قوله: "... وسأبينُّ ذلك فأقول عطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين:

أحدهما بلاغي: وهو إخبار عن ماض بمستقبل، وهو الذي أنا بصدد ذكره في كتابي هذا الذي هو موضوعٌ لتفصيل ضروب الفصاحة والبلاغة.

والآخر غير بلاغي: وليس إخبار بمستقبل عن ماض، وإنما هو مستقبل دلَّ على معنى مستقبل غير ماض، ويراد به أنَّ ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمض"(٤).

والتفريعُ والتقسيمُ للعلوم والمعارف يساعدُ على ضبطها وإتقانها، وربط بعضها ببعض، كما أنَّه يساهم في سرعة حفظها، وجودة إتقانها، وإعادة الفروع إلى الأصول، والجزئيات إلى الكليّات. وهو منهجٌ متسقٌ مع طبيعة عصر

---

(١) ينظر: سلوم، داود، (١٩٨١م)، **مقالات في تاريخ النقد العربي**، ط١، بغداد، دار الرشيد للنشر، ص ٢٤.
(٢) ينظر: ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٣٥/٢-١٤٥).
(٣) المصدر السابق، (١٤٤/٢).
(٤) السابق، (١٤٦/٢).

ابن الأثير التعليمية المتجهة نحو تأصيل العلوم وتقعيدها، للانتقال بالمعارف الإنسانية إلى قواعد مؤصلة، ومعرفة مستقرة.

ثالثًا: بلاغة الخطاب ومراعاة الذوق عند ابن الأثير:

يحرص ابن الأثير على اختيار الألفاظ المناسبة للسياق، ويؤكد على أهمية مراعاة المقام في الخطاب. يقول في ذلك: "الألفاظ تنقسمُ في الاستعمال إلى جزلةٍ ورقيقة، ولكلٍّ منهما موضع يحسنُ استعماله فيه؛ فالجزل منها يُستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنَّه يُستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك، ولستُ أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيًّا متوعرًا، عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متينًا على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع، وكذلك لستُ أعني بالرقيق أن يكون ركيكًا سفسفًا، وإنما هو اللطيف الرقيق"[١]. وما العذوبة في الفم، واللذاذة في السمع، واللطافة والرقة إلا صفات تظهر في أسلوب ابن الأثير؛ لتحقيق غايتي الإمتاع والإقناع في أسلوبه العلمي، وتحليله البلاغي.

إنَّ لابن الأثير عناية خاصة بمخاطبة القراء، ومراعاة الذوق بأدب جم، وأسلوب رفيع، وألفاظ متألقة من شأنها أن تجذب انتباه القارئ، وتحفّزه على الاستمرار والمتابعة بنهم، وهمة عالية، وانجذاب تام؛ لأنَّ هذا الفن لايجيده إلا البلغاء، وله أثره البالغ في نفسية القراء. فعندما ننظر في بعض مقولاته نجده تارةً يدعو للقارئ بجملةٍ اعتراضية، وتارةً يصفه بطالب العلم، ومتوشحِ علم البيان، وتارةً يجعل له الخيار باختيار أحد القولين، محترمًا عقله، ومتيحًا له فرصة اتخاذ القرار باقتناع، ومن تلك الأقوال: " ...فانظر **أيها المتأمل** إلى هذه النكت الدقيقة، التي تمرُّ عليها في آيات القرآن الكريم، وأنت تظن أنك فهمت فحواها، واستنبطت رموزها"[٢].

فوصفه للقارئ بقوله: أيها المتأمل لا يخلو من أسلوب رفيع، وأدب جم، ولفتة جميلة، وطاقة إيجابية موجهة إلى المتلقي لمزيد العناية والاهتمام. ويقول أيضًا: " وإذا **تأملت** مطاوي القرآن الكريم، وجدت فيه من هذا وأمثاله أشياء كثيرة، وإنما اقتصرنا على هذه الأمثلة المختصرة؛ ليقاس عليها ما يجري على أسلوبها"[٣]. وكذلك قوله: " **ألا ترى** أنه قال في الأول (يصرف مسراها) مخاطبة للغائب، ثمَّ قال بعد ذلك (إذا العيس لاقت بي) مخاطبًا نفسه..."[٤]. وكذلك قوله: " واعلم **أيها المتوشح لمعرفة علم البيان** أنَّ العدول عن صيغةٍ من الألفاظ إلى صيغةٍ أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك..."[٥]، وهنا يظهر صوت ابن الأثير المعلّم، الذي يستعمل أساليب تحفيزية

---

(١) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١/ ١٨٥).
(٢) المصدر السابق، (١٤٠/٢).
(٣) السابق، (١٤٠/٢).
(٤) السابق، (١٤١/٢).
(٥) السابق، (١٤٥/٢).

في التدريس والبناء، وكذلك قوله: "...وهذا موضع حسن **ينبغي أن يُتأمل**"[١]. وكذلك قوله: "...**وإن شئت فوازن** بينه وبين قوله تعالى..."[٢]؛ فهذه أساليب رفيعة في مخاطبة المتلقي، وإقناعه بأسلوب يجعل من الإمتاع إقناعًا، ويظهر فيها مهارة ابن الأثير في إشراك المتلقي في اختياراته البلاغية بطريقة الإقناع، ولا يمل من تكرار هذه الأساليب التربوية الذوقية؛ لتقوية حجته البلاغية، ودحض الآراء المخالفة لما ذهب إليه.

وقد كان ابن الأثير شاعرًا، وإن غلبت عليه صناعة الكتابة، ولا شكّ في أنَّ لتجربته الشعرية أثرًا واضحًا في قراءته الشعر، وتحليله الشواهد الشعرية الواردة في كتابه. والثابت أنَّ لهذه الشاعرية دورًا كبيرًا في اختياره المفردات، وتلطفه في مخاطبة المتلقين؛ لجذب انتباههم، وتأكيد المعارف التي هو بصدد الحديث عنها. لذلك كان ابن الأثير "يعبّر عن تجربته شعرًا، كما عبّر عنها نثرًا، وأنَّه فيما كتب في المثل السائر كان يستوحي طبيعته الفنية قبل أن يتخيل الرسوم والقواعد التي تخيلها من قبله علماء البلاغة والنقد"[٣].

وعناية ابن الأثير بمخاطبة المتلقي، وبمراعاة الذوق عند الخطاب مرتبطةٌ بمنهجه البلاغي المعتني بالألفاظ في تأدية المعاني، إذ يقول في هذا الباب: "الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر"[٤]. ويقول كذلك عن الألفاظ: "فما استلذه السمع منها فهو الحسن، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح"[٥].

ومن آيات حرص ابن الأثير على الأسلوب الجمالي، والاختيار الدقيق للألفاظ قدرته البارعة على التعبير عن الظواهر البلاغية، والمباحث البيانية بأسلوبٍ أدبي رفيع، كقوله عن أسلوب الالتفات: "وهذا النوع ما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن"[٦]، وقوله أيضًا: " فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي لا تكاد تطؤها، والأفهام تدركها مع قربها صافحة عنها"[٧].

والثابت عندنا أنَّ هذا المنهج البلاغي يتوافق مع علم البلاغة وسمتها، وخصوصًا مع عنايتها بالجانب الإمتاعي. يقول أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ): "وأجود الكلام ما يكون جزلًا سهلًا، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودًا مستكرهًا، ومتوعّرًا متقعّرًا، ويكون بريئًا من الغثاثة، عاريًا من الرّثاثة. والكلام إذا كان لفظه غثًّا، ومعرضه رثًّا كان مردودًا، ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله"[٨].

---

(١) السابق، (١٤٩/٢).
(٢) السابق، (١٥٠/٢).
(٣) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١١/١).
(٤) المصدر السابق، (١/ ١٩٥).
(٥) السابق، (١/ ١٦٩).
(٦) السابق، (٢/ ١٣٥).
(٧) السابق، (٢/ ١٣٧).
(٨) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (١٤١٩ه)، **الصناعتين: الكتابة والشعر**، بيروت، المكتبة العصرية، ص ٦٧.

والذوق السليم عند ابن الأثير أنفع من ذوق التعليم والتدريس؛ لأنّه يرى أنَّ مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، وهذا المنهج يحرص ابن الأثير على تنميته من خلال مجموعةٍ من المعارف والمهارات والأساليب، تنقلُ المتلقي من المنهج التعليمي إلى توسيع المدارك والأفق في التذوق والتحليل والاستقراء والاستنباط.

ويؤكدُّ ابن الأثير على أهمية التشخيص، وتعليل الأساليب البلاغية؛ للوقوف على جمالياتها وأسرارها، ويرى أنَّ الإجابات العامة تفسدُ البلاغة، وتُذهبُ رونقها كالقول بأنَّ هذا عادة العرب في أساليب كلامها. ووصف المعبرين بهذا القول بأنَّه قول عكّاز العميان، ويعني أنّه حجة العاجز.

المبحث الثاني: ابن الأثير والأحكام النقدية والبلاغية:

حكمُ ابن الأثير بأنَّ الالتفات خلاصة علم البيان يُشترطُ له تواتر هذا الحكم عند البلاغيين؛ لأنَّ من شروط الجميل "ضرورة إجماع ناس على اعتباره جميلًا؛ فتتوحد عليه عقولهم وأذواقهم"[١]، وهو أورد هذا الحكم متبوعًا بمجموعةٍ من الأحكام، منها أنَّ الالتفات شجاعة العربية، وأنَّه يختصُّ باللغة العربية دون غيرها من اللغات، وهي أحكام لا تثبت إلا بالأدلة والبراهين، واطراد المعايير التي أدّت إلى هذه النتائج العلميّة.

ينشغل ابن الأثير في تنظيره وتطبيقه أن يأتي بالجديد، وبالإضافة الإبداعية غير المسبوقة، وهو صاحب شخصية بلاغية مستقلة تظهر على أشدها في حرصه على استحداث مسالك وأفكار لم يسبقهُ إليها أحد من المفسرين والبلاغيين والنقاد. لذلك نجده يقول[٢]: "وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة، وإنَّما هي متبعة"[٣]، وهذا النصُّ مركزيٌّ في الأسباب الدافعة لابن الاثير إلى إطلاق الأحكام، وإصدار الآراء في البلاغيين ومؤلفاتهم، وفي الأساليب البلاغية، والمسائل البيانية؛ لأنَّه متلبس بفكرة الجديد والإضافة، ومخالفة من سبقه من العلماء في التحليل والاختيارات.

وفي مطلع الأنواع البيانية وختامها يذكر رأيه في الأسلوب البياني، ويصدر أحكامًا متعلقةً به، ويناقش أقوال العلماء السابقين له؛ ففي مطلع حديثه عن النوع الرابع: **لزوم مالايلزم،** قال: "وهو من أشقِّ هذه الصناعة مذهبًا، وأبعدها مسلكًا، وذاك لأنَّ مؤلِّفه يلتزم مالايلزمه"[٤]؛ فلم يستأنف حديثه عن النوع حتى ذكر خصوصيته ومشقته، وبعد مسلكه.

أطلق ابن الأثير الحكم القطعي بأنَّ الالتفات والتوكيد بالضميرين خُلاصة علم البيان، ثمَّ تدرّج في الإثباتات، والاحتجاج لها بالشواهد القرآنية والشعرية، مع بيان الأغراض البلاغية، ودور السياق في تأكيد المعنى، وتحقيق

---

(١) ذريل، عدنان، (١٩٩٧م)، **"جماليات كانت وهيجل"**، مجلة المعرفة، (العدد ١٧٣-١٩٤)، ص ١٦٦.
(٢) ينظر: العاكوب، **جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين ابن الأثير**، ص ١٧.
(٣) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (٣٤/١).
(٤) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (٢٨١/١).

الفائدة؛ فابن الأثير لم يكتفِ بإدراج الالتفات وتوكيد الضميرين في علم البيان، بل إنَّه تعدى ذلك إلى عدّهما خلاصته، وهذا يحتاج إلى تفسير وتبرير انطلاقًا من المنطق العام الذي يُبنى عليه المثل السائر.

وقد يُفهم من جعلهما خلاصة علم البيان أمران: أمر يتعلق بتصور ابن الأثير للالتفات، وتوكيد الضميرين، وأمر يتصل بتصوره لعلم البيان عامة من حيث ظواهره ومراتبها، ودرجات بلاغتها، والأمران عند ابن الأثير يحتاجان إلى الحجج والبراهين، واطّراد الأسباب وتواترها.

ثمَّ إنَّ إطلاق الأحكام وتعميمها عند ابن الأثير منهج استقرائي ينطلق من الحكم الجزئي (شواهد وأمثلة) إلى الحكم على الكل، ومن ذلك قوله: "وهكذا يجري الحكم في جميع الآيات المذكورة، وفي الأثر عن الزبير ﷺ، وفي الأبيات الشعرية"[١] بعد أن قام بتحليل مثال سابق يستضاء به في تحليل بقية الشواهد القرآنية والنبوية والشعرية.

أولًا: بلاغة التوصيف والتسميات عند ابن الأثير:

لتسميات ابن الأثير دلالتها الخاصة، ووقعها المعبّر، ونغمتها المختلفة، الدالة على عبقرية فذة، وقلم سيّال، وفكر ناضج؛ إذ نجده يطلق على الالتفات اسمًا آخر، ويصف منكري الالتفات بوصفٍ يوضّح فيه خطأ رأيهم، ومخالفتهم الصواب. فعند حديثه عن الالتفات، يقول: " وهذا النوع وما يليه هو **خلاصة علم البيان** التي حولها يُدندَن، وإليها تستند البلاغة، وعنها يعنعن "[٢]؛ ففي عدّه الالتفات والتوكيد بالضميرين خلاصةَ علم البيان دلالة واضحة على رأيه فيهما، وعظيم عنايته بهما. ثمَّ إنَّ وصفهما بخلاصة علم البيان يؤكدُّ تعلّقه الشديد بالتسميات والأوصاف، وإطلاق الأحكام تعلقًا غرضهُ جذب انتباه القارىء، وتثبيت المعلومة في ذهنه، وإكساب اختياراته البلاغية والنقدية وجاهةً إقناعيةً.

وممّا قاله في الالتفات أنَّها: "...**شجاع العربية**، وإنما سمي بذلك لأنَّ الشجاعة هي الإقدام، وذاك أنَّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام؛ فإنَّ اللغة العربية تختصُّ به دون غيرها من اللغات"[٣]. وهو قول ينتقل فيه ابن الأثير من عدِّ الالتفات والتوكيد بالضميرين خلاصةَ علم البيان إلى التركيز على الالتفات، وعدّه شجاع العربية. وفي هذا ما يؤكد حرصه على التسميات والأوصاف والنعوت والأحكام.

والحاصل ممّا سبق أنَّ هاجس التفسير والتبرير والتعليل عبر التسميات والأوصاف والشواهد ملازمٌ لابن الأثير في تنظيره وتطبيقه وتحليله واختياراته وتفريعاته وتقسيماته.

---

(١) المصدر السابق، (١٨٣/٢).

(٢) السابق، (١٣٥/٢).

(٣) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٣٥/٢).

ويستمرُّ ابن الأثير في إطلاق تسمياته وأوصافه التي قد تكون أحيانًا قاسيةً على مخالفيه. فالذين أنكروا أن يكون الالتفات ذا قصدٍ بلاغي أو أداةً في التنويع الأسلوبي، وحملوه في مقابل ذلك على أنَّه من عادة العرب في أساليب كلامها إنَّما هم عميان لا يدركون، وليس لهم غير العكاكيز يستندون إليها، يقول ابن الأثير: "اعلم أنَّ عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها، وهذا القول هو **عكاز العميان**(١) كما يقال، ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله"(٢).

ولعلَّ هذه التسميات والتوصيفات التي ينطق بها ابن الأثير تمثِّل أسلوبًا حجاجيًا غايته تأكيد ما ذهب إليه، وتعميق المسائل التي تناولها بالبحث والاستقراء والتقرير، وتحقيق مقصدية الاقتناع عند المتلقي انطلاقًا من اللغة التي استعملها استعمالًا حجاجيًا في التعامل مع آراء مخالفيه.

ومن بلاغة التوصيف عند ابن الأثير قوله: "وحقيقته مأخوذةٌ من التفات الإنسان عن يمينه وشماله؛ فهو يقبل بوجهه تارةً كذا وتارةً كذا"(٣)، فهذا التوصيف منه يتسقُ مع منهجه في الشرح والتحليل والبيان؛ لتقريب الصورة من المتلقي، ولتأكيد الرأي الذي يقرره في السياق نفسه.

ولابن الأثير قدرةٌ عاليةٌ على الشرح والتوضيح والبيان والتشقيق، مع التمثيل سعيًا منه إلى تقريب الصورة إلى المتلقي. فعند حديثه عن شجاعة العربية مثلًا ذكر –مُبررًا ما ذهب إليه– أنَّ الشجاعة هي الإقدام، ثمَّ مثَّل بشجاعة الرجل الذي يركب ما لايستطيعه غيره، ويتورد ما لايتورده سواه، وكذلك الالتفات في الكلام. ولا شكّ أنَّ الهدف من هذا التمثيل، وهذه المقاربة إنَّما هو تبرير تسمية الالتفات بشجاعة العربية للتأكيد على السر في وصف الالتفات بشجاعة العربية(٤).

وما هذا إلا ملمحٌ من ملامح المنهج الذي يعتمده ابن الأثير في أسلوب تحليله، وطريقة معالجته. إذ نجده يحرص على التسميات والأوصاف، وإطلاق الأحكام؛ لتقريب الصورة، وتحسين الألفاظ، وتأكيد الرأي الذي ذهب إليه. فمن ذلك وصفه لألفاظ أبي تمام (ت ٢٣١هـ) والبحتري (ت٢٨٠هـ) بقوله: "ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهنّ غلائل مصبغات، وقد تحلَّين بأصناف الحلي"(٥)، واختيار أجزاء المشبّه به (الرجال، الخيل، السلاح، النساء، الغلائل) من

---

(١) وهو الوصف المتداول للحجج الضعيفة، والتبريرات غير المقنعة.
(٢) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٣٥/٢).
(٣) المصدر السابق، (٢/ ١٣٥).
(٤) ينظر: ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٦٨/٢).
(٥) المصدر السابق، (١/ ١٩٥).

المحسوسات؛ للزيادة في التوضيح والبيان، ولتعميق الآراء والأحكام، وتقريب الحكم للمتلقي؛ لأنَّ تشبيه المعنوي بالحسي يحقّق إظهار المعنى وإيضاحه.

ثانيًا: بين ابن الأثير والزمخشري:

إنَّ مايسترعي الانتباه في المثل السائر هو أنَّ ابن الأثير قد بدا لنا ميّالًا إلى محاورة العلماء السابقين في إسهاماتهم في التنظير والتطبيق، وإبراز رأيه المخالف لمن سبقه، مع الاستشهاد والتمثيل والاحتجاج؛ لإقناع المتلقي بما ذهب إليه. فمن ذلك قوله: "وجدتُ علماء البيان قد فرّقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابًا مفردًا، ولهذا بابًا مفردًا، وهما شيءٌ واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يُقال: شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال: مثلته به. وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه؟"(١). ويراجع ابن سنان الخفاجي في مخالفة لفظةٍ لشروط الفصاحة ومعاييرها، يقول في هذا الصدد: "وقال: إنَّ لفظة سويداواتها طويلة؛ فلهذا قبحت، وليس الأمر كما ذكره، فإنَّ قُبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها، وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة، وقد كانت وهي مفردة حسنة، فلمَّا جمعت قَبُحَت، لا بسبب الطول"(٢). وفي حديثه عن النوع الثامن في المنافرة بين الألفاظ في السبك، يقول: "وهذا النوع لم يحقّق أحدٌ من علماء البيان القول فيه"(٣). وهذا منهج مطرد عند ابن الأثير في مناقشة البلاغيين والنقاد والأدباء، ومراجعتهم في اختياراتهم البلاغية والنقدية.

وممّا توقف عنده ابن الأثير في باب الالتفات رأي الزمخشري في الموضوع الذي انصرف إلى مناقشته ومخالفته؛ فالوظيفة التي يراها الزمخشري للالتفات هي وظيفية تزيينية تتمثّل في التفنن في الكلام عبر الانتقال من أسلوب إلى أسلوب. وهذا يفضي بأنَّ الإتيان به في الكلام لا موجب له غير التزيين والتحسين والزخرفة. أمّا الوظيفة التي يؤكد عليها ابن الأثير فهي الوظيفة التأثيرية الحجاجية التداولية المتمثّلة في إضافة غرض بلاغي يحقق المراد فضلًا عن التفنن في الكلام، والانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوب؛ لتنشيط السامع، وجذبه إلى الاستماع والإنصات؛ فرأي ابن الأثير أن يجتمع في الالتفات التفنن الأسلوبي، مع الفائدة المعنوية، والغرض البلاغي.

ويواصل ابن الأثير منهجه في الدحض (الاعتراض) في أثناء تحليله أقسام الالتفات من ناحية، والتأسيس (الإثبات) من ناحيةٍ ثانية؛ فمنهجه قائم على النقض والإبرام؛ فالالتفات عنده ليس توسعًا في أساليب القول، أي: ليس ترفًا في القول، أو زينة من زيناته، بل هو إجراء أسلوبي منتج للمعنى، ومؤدٍ لمقصد.

---

(١) السابق، (٢/ ٩٣).
(٢) السابق، (١/ ٢٠٤).
(٣) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١/ ٣١٥).

ففي دحض ابن الأثير تصور الزمخشري للالتفات ووظيفته استدرك على آراء سابقيه مراجعةً لأحكامهم، ومناقشةً لأفكارهم، وما هذا إلا دليلٌ تطبيقي على حركة التفكير البلاغي عند العرب؛ فالتفكير يتطور وينمو بالاستدراك والمراجعة، والتخطئة والتعديل، والإضافة والتأسيس.

إنَّ الأطروحة التي يؤسس لها ابن الأثير في هذا الخصوص تحرير الالتفات من الوظيفة التزيينية الخالصة، وربطه في مقابل ذلك بالمعنى، والتأثير في السامع [١]. وهذا هو أساس فهم ابن الأثير للالتفات، ومحطُّ مباينته لسابقيه. فالذي يريد تأكيده أنَّ الالتفات ليس مجرد حلية تزيينية، وفي هذا قرينة يمكن الاستناد إليها في محاولة ربط هذا التصور المخصوص لابن الأثير ببعض مرتكزات البلاغة الجديدة، على خلاف ما هو متداول عند كثيرٍ من الدارسين. فالمتداول عند كثيرين تصور منقوص مؤدّاه أنَّ البلاغة العربية القديمة بلاغة عبارة وأسلوب، أي: بلاغة تحسين وتزيين لا بلاغة تداول وحجاج، وهو قول غير دقيق؛ لأنَّ البلاغة العربية أولت الجانب الحجاجي الإقناعي أهمية واضحة من الجاحظ مرورًا بالبلاغيين والنقاد بعده، وابن الأثير في أطروحته يبيّن هذا الجانب المهم من الجوانب المشرقة في تاريخ البلاغة العربية.

ومن الفوائد التي ذكرها ابن الأثير تعليقًا على تحليل مواضع الالتفات في الشواهد القرآنية إضافةً على التفنن في أساليب القول: تعظيم شأن المخاطب، تعظيم الخطاب، زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله، التنبيه لهم على عظم ما قالوه، تخصيص النبي ﷺ بالذكر والإشارة. وهذه الفوائد التي ذكرها مرتبطة بالمعنى، ومستنبطة من السياق؛ فكأنَّ ابن الأثير استثمر المعاني القرآنية، والدلالات السياقية؛ لإبراز الأغراض البلاغية في صور الالتفات المتنوعة.

ويرى بعض النقاد المعاصرين أنَّ طرح ابن الأثير فيه مغالاةٌ غير مقبولة، وأنَّ الزمخشري أحسن الكلام وأجاد عن سرِّ بلاغة الالتفات؛ فرأي الزمخشري أنَّ الالتفات يُستعمل للتفنن في الكلام، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه هو الرأي الموافق لسياسة البلاغة العربية[٢]، وهذا الرأي مقبول عند بعض الدارسين، والسبب الذي دفع الباحثين إلى الدفاع عن الزمخشري المبالغة من ابن الأثير في الردِّ على رؤية الزمخشري البيانية للالتفات؛ فالمبالغة من ابن الأثير في الدحض والاعتراض ولّدت اتجاهًا آخر يبين وجاهة رأي الزمخشري، ومنطقية رأيه.

---

(١) الفائدة عند ابن الأثير غير مفصولة عن المعنى المقصود، أي: عن مقاصد المتكلم/القائل.

(٢) طبانة، بدوي، (١٩٨٨م)، **معجم البلاغة العربية**، ط٣، الرياض، دار المنارة، ص ٦١٧.

وابن الأثير تجاوز حد الإنصاف في نقده للزمخشري؛ فظاهرة الالتفات إحدى الظواهر الأسلوبية التي لا مشاحة في إثارتها للمتلقي، ولفت انتباهه بما في بنيتها اللغوية الخاصة، ومن العجيب أنَّ تحليل ابن الأثير لقيمة الالتفات أو فائدته في معظم النماذج التي أوردها لا يخرج –في عمومه– عن أن يكون نقلًا حرفيًا من تفسير الزمخشري(١). ويعدُّ الزمخشري أول من بدأ التأصيل النظري لظاهرة الالتفات، وأول من عنى ببيان القيمة الفنية للظاهرة(٢)، وهذه الأوليّة تبيّن عمق مرحلة الزمخشري في التأصيل والتنظير والتطبيق، وهو ما يقوي رأي الزمخشري في دقته في تتبع الظاهرة، واطراد حكمه في التحليل التطبيقي.

المبحث الثالث: الالتفات والتوكيد بالضميرين بين النحو والبلاغة:

ممّا يؤكّدُ وعي ابن الأثير بأهمية علم النحو، وضرورة دراسة مسائلة دراسةً بلاغيةً وقوفه عند مجموعةٍ من المسائل النحوية كتوكيد الضميرين. وهو يرى أنَّ ذلك لابدّ أن يتأسس على منطلقٍ بلاغي يختلف عن طبيعة الدراسات النحوية القائمة على الأحكام المعياريّة. يقول في هذا: "إن قيل في هذا الموضع: إنَّ الضمائر مذكورة في كتب النحو، فأيُّ حاجةٍ إلى ذكرها ههنا، ولمَ نعلم أنَّ النحاة لا يذكرون ما ذكرته؟ قلتُ: إنَّ هذا يختصُّ بفصاحة وبلاغة، وأولئك لا يتعرضون إليه، وإنما يذكرون عدد الضمائر، وأنَّ المنفصل منها كذا، والمتصل كذا، ولا يتجاوزون ذلك، وأمَّا أنا فإني أوردتُ في هذا النوع أمرًا خارجًا عن الأمر النحوي"(٣)(٤).

ويرى أنَّ منزلة علم النحو من علم البيان بمنزلة أبجد في تعليم الخط؛ فالنحو أول ما ينبغي تعلمه؛ لأمن اللحن(٥). وهذا ترتيبٌ لسلم تلقي علوم العربية عند ابن الأثير؛ فالنحو عنده مرحلة أولى في البناء اللغوي؛ لضمان سلامة اللغة، وبعد التمكن اللغوي يأتي عمل علم البيان في البحث عن المعنى المراد، والفائدة البيانية، والغرض البلاغي. لقد وجد ابن الأثير في الجمع بين هذين المبحثين مدخلًا إلى تدبر طبيعة العلاقة القائمة بين النحو والبلاغة عمومًا. إذ يرى أنَّ صاحب البيان والنحوي يشتركان في أنَّ النحو ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، أي: الدلالة العامة. أمّا صاحب علم البيان فإنَّه ينظر في فضيلة تلك الدلالة، أي: الدلالة الخاصة، والمراد بالدلالة الخاصة هيئة مخصوصة من الحسن، مع تأدية المعنى(٦). وهي رؤية تتوافق مع منهجية معالجته

---

(١) ينظر: طبل، حسن، (١٤١٨ه/١٩٩٨م)، **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، ط١، القاهر، دار الفكر العربي، ص٢٧.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص ٢٦.
(٣) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (٢/ ١٥١).
(٤) يعلّق الصفدي على ذلك بقوله: "إنّ نحوَ المتقدمين غالبُه معانٍ وبيانٌ، مثل: الرّماني وأبي علي الفارسي وابن جنّي على تأخر زمانهم، وأكثر ما هو الآن مدوّن في علم المعاني مذكور في كتب القوم، ولكن لما أتى الإمام عبد القاهر الجُرجاني جرَّد هذه النُّكت التي ليست بإعراب ولا بد، وجمعها ودوَّنها وبوَّبها ورتَّبها، صار علمًا قائمًا برأسه، وتنبَّه الناس بعده كالسَّكّاكي، وغيره تفتَّحتْ لهم الأبواب؛ ولهذا إنّ مَن لم يكن متمكّنًا من النَّحو، لا يقدر على الكلام في هذا. ألا ترى أنَّ الزمخشري لما كان عارفًا بالنحو تيسر له في تفسيره ما لا تَيسَّر لغيره. وباقتداره على الإعراب، والنظر في أسرار العربية، وتعليل أحكامها أورد تلك الإشكالات، وأجاب عنها بتلك الأجوبة المرقِصَة، وبالنّحو استطال ومَهر وتبحَّر ودرْبةُ فنَّيْ النَّظم والنَّثر هي التي نبهته لذلك". الصفدي، **نصرة الثائر على المثل السائر**، (١/٦٩).
(٥) ينظر: ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١/ ٤١).
(٦) ينظر: المصدر السابق، (١/ ٣٧).

للالتفات وتوكيد الضميرين؛ لأنَّه يؤكد فيهما أنَّ النحويَّ يعتني بالدلالة العامة من جهة الوضع اللغوي، وهي دلالة عامة يعمل البلاغي على الانطلاق منها للوصول إلى الدلالة الخاصة، المعتنية بفضيلة تلك الدلالة، وبالغرض البلاغي، وبالمعاني الإضافية. وبهذا لا يمكن تبيّن عمق الالتفات والتوكيد بالضميرين في رأي ابن الأثير إلا بالعدول بهما عن الوظيفة اللغوية أو التزيينية إلى الوظيفة الجمالية الحجاجية.

وممّا يؤكّدُ هذا المسلك عند ابن الأثير استثماره ما جاء به عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في نظرية النظم، والبحث عن المعاني الثواني، والانطلاق من معاني النحو إلى التحليل البياني الجمالي. لذلك اتخذ ابن الأثير من عناية عبد القاهر بالمعاني الإضافية، والتحليل التذوقي منطلقًا لمشروعه في الجمع بين النحو والبيان؛ لتجاوز الدلالة العامة إلى الدلالة الخاصة المرتبطة بالمعنى والسياق. وهذا هو ماحاول القيام به عند دراسة أسلوبي الالتفات والتوكيد بالضميرين سعيًا منه إلى إقامة مستويين من المعالجة فيهما، المستوى البياني منهما هو المستوى الأعلى الذي يعدُّ خلاصة علم البيان؛ لمن التزم المنهج نفسه في معالجة المباحث البلاغية الأخرى.

يتضح لنا ممّا سبق أنَّ ابن الأثير على وعيٍ بأنَّ البلاغة من آليات الخطاب الأدبي التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فهي ليست مجرد حلية يؤتى بها لتنقيح الكلام وتزيينه من باب الترف اللغوي، والاستعراض البياني، بل إنَّها الركن الأساس الذي يشكّل بنيته، والعمدة التي تمنحه أدبيته(١).

لذلك فإنَّ القواعد النحوية التي تستعمل في اللغة العامة استعمالًا عفويًا دون وعي –أحيانًا– كثيرًا ما تتحول على يد المبدع إلى بنية ذات مغزى، ومن ثمَّ تحظى بطاقةٍ تعبيرية(٢). وهذا هو التحول الإبداعي الذي ينشده ابن الأثير منطلقًا من القاعدة إلى الذوق، ومن الوظيفة الوضعية إلى الوظيفة الإبداعية.

ويعدُّ الالتفات الذي أولاه ابن الأثير عنايته الخاصة من أهم الظواهر التي ركزت عليها البلاغة والأسلوبية معًا على أساس أنَّه ظاهرة بلاغية وأسلوبية وتداولية على حدٍّ سواء، بمعنى أنَّ البلاغة تدرس الالتفات في مبحث الإنشاء والخبر من جهة، وفي علم البديع من جهةٍ أخرى، كما تدرسها باعتبارها ظاهرة أسلوبية ذات وظيفة فنية وجمالية، كما أنَّها ظاهرة تداولية ترتبط بجماعة من المتلفظين المتخاطبين، وبالتالي تتخذ وظائف ومقاصد حسب السياقات والمقامات النصية، والخطابات التلفظية. بل يمكن أن يتخذ الالتفات طابعًا حجاجيًا عندما يرتبط بالإمتاع والإقناع والفائدة على السواء(٣).

وماقاله ابن الأثير عن الالتفات ينسحب على توكيد الضميرين؛ فالالتفات والتوكيد بالضميرين هما خلاصة علم البيان، وخلاصة الشيء: زبدته وعصارته ومنتهاه. لذلك يستهلُّ حديثه عن توكيد الضميرين محاججًا مجادلًا

---

(١) ينظر: دوادي، زينب، (٢٠١٥م)، **"الأسس والمرتكزات البلاغية عند ضياء الدين ابن الأثير: إضاءات في مضامين المثل السائر"**، حوليات جامعة قالمة للغات والآداب، (العدد ١٢)، ص ٣١٥.

(٢) ينظر: لوتمان، يوري، ترجمة وتقديم: محمد فتوح أحمد، (١٩٩٥م)، **تحليل النصّ الشعري** القاهرة، دار المعارف، ص ١١٢.

(٣) ينظر: حمداوي، جميل وداود، بلال، **بلاغة الالتفات في الخطاب الروائي**، إربد، ركاز للنشر والتوزيع، ص ٨.

مفترضًا، وساعٍ إلى تفنيد اعتراضات المتلقي الضمني: " إن قيل في هذا الموضع إنَّ الضمائر مذكورة قي كتب النحو؛ فأيُّ حاجةٍ إلى ذكرها هاهنا؟"[١]، وفي قوله هذا يسوّغ لنفسه حديثه عن النوع الخامس لدراسة مبحث نحوي في كتابٍ يعدُّ من المصادر البلاغية والنقدية والأدبية، ثمَّ إنه يجتهد في إثبات أنَّ توكيد الضميرين لا يحقق المراد منه إلا البحث عن الغرض البلاغي، والمعنى الإضافي في ذلك، ويعلّق على أمثلة توكيد الضميرين بقوله: "وإنَّما يؤتى بمثل هذه الأقوال في معرض المبالغة، وهو من أسرار علم البيان"[٢]، وهو بيت القصيد الذي يريد أن يحققه من خلال دراسة هذا المبحث النحوي؛ للانتقال بالمسائل النحوية من الأحكام المعيارية إلى الأسرار البيانية في حدِّ تعبيره.

المبحث الرابع: قيمة البابين في البيان والفصاحة:

اهتمّ البيان حسب تعريف الجاحظ له بالفهم والإفهام، وبذلك فهو يمتد في المشروع والطموح إلى نظريةٍ في المعرفة استنباطًا وسمتًا ومعالجةً وتداولًا، ويتراجع في المنجز حسب مقتضيات اللحظة التاريخية معرفةً ووظيفةً إلى تقنية في التأثير والإقناع في مسلسل التحول من الطموح إلى المتاح والعملي[٣].

والالتفات وتوكيد الضميرين من الأبواب التي أولاهما ابن الأثير عنايةً بالدرس والتحليل والاستقراء والاستنباط، وخصّهما بأحكام نقدية لم يذكرها لغير هذين البابين، يقولُ في ذلك: " وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حَوْلَها يُدْنَدَنُ، وإليها تستندُ البلاغةُ، وعنْها يُعَنْعَن"[٤]. والمقصود بعلم البيان هنا، الإبانة وليس علم البيان الاصطلاحي: (التشبيه والاستعارة والكناية.. إلخ)؛ لأنَّ هذين البابين (الالتفات وتوكيد الضميرين) من مباحث علم المعاني اصطلاحيًّا؛ فهما يرتبطان بمعاني النحو والتراكيب، وليس بالتصوير الفني الذي يندرج تحت علم البيان الاصطلاحي. وهذا ما يؤكده ابن الأثير بقوله: "فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية"[٥]. ففي هذا القول مايبين أنَّ مراد ابن الأثير بالبيان البلاغة عمومًا، والفصاحة بنوعيها اللفظية والمعنوية.

وهذا ما يوضحه أيضًا قوله –وهو يعلّق على رأيٍ للزمخشري– في الالتفات: "وما أعلمُ كيفَ ذهَب على مثْل الزمخشريّ، مع معرفته بفنِّ الفصاحةِ والبلاغَةِ؟"[٦]، وقد يؤكّد هذا الاستعمالَ عند ابن الأثير قولُ الصفدي معلّقًا على نصٍّ لابن الأثير في موضعٍ آخر من المثل السائر: " وإن أراد بالبيان علم المعاني الذي هو ما يُعرف به

(١) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٨٦/٢).
(٢) المصدر السابق، (١٨٧/٢).
(٣) ينظر: العمري، محمد، (٢٠١٢م)، **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، ط٢، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، ص ٣٩.
(٤) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٣٥/٢).
(٥) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (٣٧/١).
(٦) المصدر السابق، (١٣٦/٢).

تتبُّع خواصّ تراكيب الكَلِم، من أحوال الإسناد الخبري، ...."[١]؛ فهذه النصوص تبيَّن مراد ابن الأثير أنَّ الالتفات وتوكيد الضميرين هما خلاصة علم البلاغة وزبدته، وأنَّهما نواة رئيسة لمن أراد ضبط مباحث البلاغة ومسائلها.

ولعلَّ الجمع بين النوعين (الالتفات/ توكيد الضميرين) يعود إلى كونهما من صور العدول؛ فهو يقول:" واعلمْ أيها المتوشحُ لمعرفةِ علم البيان أنَّ العدول عن صيغةٍ من الألفاظ إلى صيغةٍ أخرى لا يكونُ إلا لنوع خصُوصيّة، اقتضَتْ ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامِه إلا العارفُ برمُوزِ الفصاحةِ والبلاغة الذي اطَّلع على أسرارِها، وفتَّش عن دَفائِنها. ولا تجدُ ذلك في كلِّ كلامٍ، فإنَّه من أشكلِ ضُروب علمِ البيان، وأدقِّها فهمًا، وأغمضِها طريقًا"[٢]؛ فالعارفُ برموز الفصاحة والبلاغة، المطلع على أسرارها، والمفتّش عن دفائنها هو الذي يستطيع تمييز صور العدول، وأغراضها البلاغية؛ فهي مرحلة متقدمة لا يتقنها إلا من وصل هذه الدرجة من التمكن البلاغي والنقدي، وفي الالتفات وتوكيد الضميرين عدول وانتقال، ودلالة عامة وخاصة، وهذا الاشتراك بينهما قد يكون هو من أسباب تخصيصهما بأنَّهما خلاصة علم البيان.

يعدُّ ابن الأثير الالتفات صورة من صور العدول، ووجهًا من وجوهه. وهذا ما يفهم من قوله معلقًا على قول عنترة: "فقوله: فأطعنُ بها في عينه، وأطأ برجلي معدولٌ به عن لفظ الماضي إلى المستقبل، ليمثِّل للسامعِ الصورة التي فعل فيها ما فَعل من الإقدام والجراءة على قتلِ ذلك الفارس المُسْتَلْئِمْ"[٣].

ثمَّ إننا نجده يستدعي لغة الإشارة والدلالة بغير اللفظ في محاولته تعريف الالتفات. يقول: "فهو يقبل بوجهه تارةً كذا، وتارةً كذا"[٤]، وقد جاء في الصحاح للجوهريّ (ت٣٩٣هـ): " اللّفْتُ: اللَيّ. ... ولَفَتَ وجهَه عنّي، أي صرفَه. ولَفَتَه عن رأيه: صرفه"[٥]. وفي هذا الذي أورده الجوهري صلة أخرى بالعدول، ويؤكّد ذلك قول ابن الأثير عنه اصطلاحيًّا:"وكذلك يكونُ هذا النوعُ من الكلام خاصَّة؛ لأنه يُنْتقلُ فيهِ عن صيغَة إلى صيغَة، كانتقال من خطابٍ حاضرٍ إلى غائبٍ، أو من خطابٍ غائبٍ إلى حاضر، أو من فعلٍ ماض إلى مُستقبل، أو من مُسْتقبلٍ إلى ماض، أوْ غير ذلك مِمّا يأتي ذكرهُ مفصّلا"[٦].

فالعدول من صيغة إلى صيغة، ومن صورة إلى صورة في الالتفات وتوكيد بالضميرين جامعٌ بينهما، ومشترك بين الأسلوبين؛ لأنَّه انتقالٌ يجمع بين التفنن الأسلوبي، وتنشيط المتلقي مع تحقيق الأغراض البلاغية، والفوائد المعنوية التي تخدم السياق تأسيسًا وتأكيدًا.

---

(١) الصفدي، **نصرة الثائر على المثل السائر**، (١٣/١).
(٢) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٤٥/٢).
(٣) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٤٦/٢).
(٤) المصدر السابق، (١٣٥/٢).
(٥) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (١٤٠٧ه/١٩٨٦م)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، (٢٦٤/٢)، (لفت).
(٦) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (١٣٥/٢).

الالتفات صورة من صور شجاعة العربية:

يقول ابن الأثير: " ويسمَّى أيضًا شجاعة العربية، وإنَّما سمِّي بذلك؛ لأنَّ الشجاعة هي الإقدام، وذاكَ أنَّ الرّجُل الشجاعَ يركبُ ما لا يسْتَطيعُه غيرُه، ويتورّدُ ما لا يتورّده سِوَاه. وكذلك هذا الالتفاتُ في الكلامِ، فإنَّ اللغة العربيّة تختصُّ به دونَ غيرها من اللغات"[١].

إنَّ التسمية نفسها نكتة بلاغية، وتعليلُ التسمية يوضّح قدرة العربية على التصرّف في الأساليب دون خوف الوقوع في اللبس أو الغموض، وهذا يدلُّ على قدرة العربية على البيان، وإن كان بالأساليب والعبارات نوعُ مخالفة للمعهود في ترتيب الكلمات والجمل والربط بينها، ولعلّ هذا مقصودُه باختصاص العربية به دون سواها.

ثمَّ إنَّ ابن جني (ت٣٩٢) عقد في الخصائص بابًا كبيرًا في شجاعة العربية. وما دام جعله من خصائصها فإنَّ ذلك يؤكد تفرّد العربية به دون سواها من اللغات، وفي هذا ما يعزّز لرأي ابن الأثير، ويمنحه وجاهته إلى حدٍ ما. ولكن هل جعلُ الالتفات من شجاعة العربية من وضع ابن الأثير؟ أم هو من وضع علماء آخرين؟ وقد قادنا هذا إلى هذا السؤال ما وجدناه في عبارته السابقة: "ويُسَمَّى"؛ فكأنَّ ذلك مشهورٌ شائعٌ عند غيره من العلماء في عصره أو ممن سبقهم. وبالنظر فيما ذكره ابن جني عن شجاعة العربية نجده يقول: " باب في شجاعة العربية: اعلم أنَّ معظم ذلك إنَّما هو الحذف، والزيادة، والتقديم، والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف"[٢].

وعبارة ابن جني:" اعلم أنَّ معظم ذلك إنما هو...إلخ" تدلّ على أنَّ صور شجاعة العربية أكثر مما ذكره ابن جني، وأنه إنما ذكر المشهور منها عنده، وعليه فإنّ عدَّ الالتفات صورةً من صور شجاعة العربية إضافةٌ تُحسَب لابن الأثير.

ولعلّ المقصود بشجاعة العربيّة هنا، وفيما ذكره ابن جني هو قدرةُ العربية على التصرف في الأساليب مع بقائها مفهومةً واضحةً تدل على المعاني دلالةً متنوعةً، مع احتفاظها بشيءٍ من الغموض المقبول الذي يحثّ الذهن على تأمل العبارات، واستجلاء خباياها؛ فإذا تأملها السامع أدنى تأمّل أدَّاه ذلك إلى معانٍ دقيقةٍ مبتكرة، لا يمكن أن يُفهمها النص أو الأسلوب أو العبارة من غير هذا التصرف المحسوب فيها. لذلك يقول ابن جني عن الحذف، وهو أول صور شجاعة العربية عنده:" قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[٣].

(١) المصدر السابق، (١٣٥/٢).
(٢) ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: محمد علي النجار، (٢٠٠٦م)، **الخصائص**، القاهرة، المكتبة العلمية، (٣٦٢/٢).
(٣) المصدر السابق، ٢/ ٣٦٠.

ولا شكّ أنَّ العربية بما تحمله من خصائص الفهم والإفهام قادرة على التصرف في العبارات والأساليب، ولها الشجاعة في الإتيان بأساليب على غير الأصل فيها، اعتمادًا على السياق والقرائن وغير ذلك؛ فالقدرة على إحداث التغيير شجاعة تمتلكها العربية، وتنفرد بها دون غيرها من اللغات.

وتفسير الشجاعة هنا بإقدام اللغة العربية على طريقٍ من التعبير لم تقدم عليه غيرها من اللغات فيه شيء من المجازفة؛ لأن هذه الخصوصية تصف حالة، أو شعورًا إنسانيًّا عامًا، والقول بأنَّ المتكلمين بغير العربية لم يجدوا في نفوسهم هذه الحالة التي تدعو الإنسان إلى مخاطبة نفسه، أو تدعوه إلى أن يصرف القول عن مخاطبه، أو أن يقبل بالخطاب على من ليس في حضرته قولٌ بعيد، والذي نراه أنَّ الشجاعة هنا إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه الأصل؛ لأنها تعبير بأسلوب الخطاب في سياق الغيبة، وذكر الغيبة في سياق الخطاب، وهكذا، والمعتمد عليه في ذلك سياق الكلام وشفافية الدلالة، وهذا إن تأملته ضرب من الشجاعة، واقتحام سبيل غير السبيل المألوف[1].

وللبلاغيين مراجعات للأحكام التي أطلقها ضياء ابن الأثير: الالتفات شجاعة العربية، الالتفات والتوكيد بالضميرين خلاصة علم البيان، اختصاص العربية بالالتفات دون سائر اللغات؛ فبدوي طبانة يرى أنَّ الحكم بأنَّ الالتفات والتوكيد بالضميرين فيه غلو؛ فلا مبرر من اختيارهما من بين سائر المباحث البلاغية الأخرى[2]، ووجهة النظر أن هناك مجموعة من المباحث البلاغية الأخرى هي الأقرب أن تكون الخلاصة كالإيجاز، والفصل والوصل، وغيرهما. وكذلك اختصاص العربية بالالتفات دون غيرها فقد نال بعض الآراء المخالفة؛ فمحمد أبو موسى يرى أنَّ قصره على العربية لا يخلو من المجازفة، وهو قولٌ بعيدٌ في حدِّ رأيه[3].

وهي آراء علمية منهجية من بلاغيين معتبرين تبيّنُ أنَّ هذه الأحكام فيها مبالغة وغلو ومجازفة؛ لأنَّ شجاعة العربية تظهر في أساليب كثيرة كالحذف والتقديم والتأخير، وليست محصورة على الالتفات، وإن كان الالتفات صورةً من صور شجاعة العربية؛ لارتباطه بالعدول الأسلوبي، والتنوع الضمائري، والتفنن الخطابي. كما أنَّ وصف الالتفات وتوكيد الضميرين بأنَّهما خلاصة علم البيان أمر يصعب التسليم به؛ لأنَّ البلاغة ترتكز على مباحث كثيرة؛ فالإيجاز عند كثير من الأمم يمثّل خلاصة البلاغة وزبدتها؛ لأنَّه أسلوب يحقق المعنى المراد بعددٍ قليلٍ من الكلمات دون لبس أو غموض. واختصاص الالتفات باللغة العربية فيه مبالغةٌ أيضًا؛ لأنَّه أسلوب متداول في اللغات الإنسانية.

---

(١) أبو موسى، محمد محمد، (١٩٩٦م)، **خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، ط٤، القاهرة، مكتبة وهبة، ص ٢٥٠.
(٢) ينظر: طبانة، **معجم البلاغة العربية**، ص ٦١٧.
(٣) ينظر: أبو موسى، **خصائص التراكيب**، ص ٢٥٠.

ويؤكد هذا الاتجاه ما ذكره العلوي في الطراز؛ حيثُ ذكر أنَّ الفصاحة هي خلاصة علم البيان، يقول: "اعلم أنَّ الفصاحة من عوارض الكلم اللفظية، وهي خلاصة علم البيان وصفوة جوهره، ويوصف به المفرد والمركب، وهي أخصُّ من البلاغة، ولهذا يقال كل بليغ من الكلام فصيح، وليس كل فصيح بليغًا"(١)، فالعلوي يرى أنَّ الفصاحة خلاصة علم البيان، وليس الالتفات وتوكيد الضميرين كما ذكر ابن الأثير؛ فالمسألة نسبية ذوقية عند البلاغيين والنقاد؛ لاختلاف معاييرهم التي بنوا عليها هذا الحكم.

ومع ماسبق فإنَّ الالتفات لونٌ من ألوان الصياغة، يعين ذا الموهبة الصادقة على الإيحاء بكثيرٍ من اللطائف والأسرار، ويلفت النفس المتلقية الواعية إلى كثيرٍ من المزايا، وكلما أمعنت النظر في مواطنه من الكلام الرفيع بانت لك وجوه من الحسن تزيدك إحساسًا بقدرته، ومعرفةً بأهميته (٢).

ويبقى أسلوب الالتفات من بديع فنون البلاغة، وهو ملمحٌ من ملامح النظرية الأسلوبية الحديثة، وهو على المستوى الفني من الظواهر التي تتحكم في الأساليب بصيغة الحضور الفاعل والمؤثر. فكأنَّ الالتفات يحقّقُ الاستجابة الطبيعية لنزوع الإنسان إلى التنوع والتجديد في أساليب تعبيره، وصيغ كلامه(٣).

الخاتمة

وبعدُ، فإنّي أحمد الله تعالى الذي منَّ عليَّ بإتمام هذا البحث، وفيما يلي أوجز ما توصلتُ إليه من نتائج علمية إتمامًا للفائدة، وهي على النحو الآتي:

١- لابن الأثير منهجٌ محدد، ورؤيةٌ خاصة، وشخصيةٌ مستقلة في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، وهو ما أبان عن جدّته في معالجة موضوعه، وسعيه إلى تعميق أبواب البلاغة وفروعها، وإبداء رأيه في المسائل المتناولة في الكتاب.

٢- إنَّ الأطروحة التي يؤسس لها ابن الأثير في هذا الخصوص هي تحرير الالتفات من الوظيفة التزيينية الخالصة، وربطه في مقابل ذلك بالمعنى، والتأثير في السامع (٤). وهذا هو أساس فهم ابن الأثير للالتفات، ومحطُّ مباينته لسابقيه. وهو ما حاول أن يظهره عند دراسة توكيد الضميرين؛ للانتقال بهما من الدلالة الوضعية العامة إلى الدلالة الخاصة المرتبطة بالمعنى والسياق.

---

(١) العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني، (١٤٢٣ه)، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، (٣/ ١٣٦).

(٢) ينظر: أبو موسى، **خصائص التراكيب: دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، ص ٢٤٩.

(٣) ينظر: الخير، مازن موفق صديق، (٢٠١١م)، **الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني: الالتفات أنموذجًا**، ط١، بغداد، مكتبة دار البيان، ص ٥.

(٤) الفائدة عند ابن الأثير غير مفصولة عن المعنى المقصود، أي: عن مقاصد المتكلم/القائل.

٣- استثمر ضياء الدين ابن الأثير الأغراض البلاغية في الشواهد القرآنية؛ لتحقيق مقاصد شرعية وعلمية وتربوية؛ فالشرعية تتمثّل في تأكيده عظمة الله ﷻ، وتقرير مسائل الاعتقاد عند التحليل، والحث على الثوابت الشرعية الواردة في الشاهد[1]. والتربوية في التقاط التوجيهات التربوية والإنسانية من الشواهد القرآنية خصوصًا؛ لتوجيه القراء توجيهًا مثمرًا يتلاقى مع منهجه في العناية بالذوق، ومراعاة المخاطبين[2]. والعلمية للردِّ على مخالفيه بالحجج والبراهين والقرائن؛ لبيان أنَّ الالتفات وتوكيد الضميرين ليس محصورًا على الوضع اللغوي، والتفنن الأسلوبي، بل لفوائد معنوية، وأغراضٍ بلاغية؛ فهذه الأمور الثلاثة دعمت توجه ابن الأثير المتمثّل في الإطناب عند تحليل الشواهد، وتحقيق المقاصد المذكورة.

٤- العدول من صيغةٍ إلى صيغة، ومن صورةٍ إلى صورة في الالتفات وتوكيد الضميرين جامعٌ بينهما، ومشترك بين الأسلوبين، وسمةٌ أسلوبية ظاهرة فيهما؛ لأنَّه انتقالٌ يجمع بين التفنن الأسلوبي، وتنشيط المتلقي مع تحقيق الأغراض البلاغية، والفوائد المعنوية التي تخدم السياق تأسيسًا وتأكيدًا.

٥- الرابط بين الالتفات والتوكيد بالضميرين هو أداء المعنى، والتعبير عن مقصد المتكلم. ولا شكّ أنَّ هذا الربط بينهما يعود بنا إلى الرؤية البيانية التي أسّسَ قواعدها الجاحظ في البيان والتبيين؛ فكأنَّ ابن الأثير يريد أن يعيد البلاغة إلى أصلها البياني بعد ما أدرك أنَّها تتجه إلى الجوانب الشكلية والزخرفية بهذا المعنى، وتميل إلى الاختزال في العبارة. وهو الأمر الذي أفقد البلاغة الوظيفة الأساسية القائمة على البيان والتبيُّن، وأداء المعنى، والتعبير عن المقصد؛ فالجامع بينهما تخليص الالتفات والتوكيد بالضميرين من التصورات الزخرفية التزيينية، والتأكيد على أنَّهما ظاهرتان منتجتان للمعنى، ومعبرتان عن مقصدية المتكلم، وغاياته المختلفة.

٦- من الإضافات الظاهرة عند ابن الأثير ميلهُ إلى ربط الأساليب البلاغية بالوظيفة الحجاجية الإقناعية زيادةً على دورها الجمالي الأسلوبي.

٧- لم يكتفِ ابن الأثير في تحليل مواطن الالتفات بذكر فائدة التنويع الأسلوبي، إنَّما اجتهد في تبيين الأغراض المعنوية التي تؤكد المعنى، وتتناسب مع السياق.

٨- الأحكام التي أطلقها ابن الأثير لا تخلو من مبالغة وغلو ومجازفة؛ لأنَّ شجاعة العربية تظهر في أساليب كثيرة كالحذف والتقديم والتأخير، وليست محصورةً على الالتفات، وإن كان الالتفات صورةً من صور شجاعة

---

(١) كقوله: "عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس؛ لأنَّه مهم من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيبٌ للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه". ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (٢/ ١٣٩)، وكقوله: "فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر؛ للعناية بتوكيده في نفوسهم؛ فإنَّ الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثمَّ أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا يصح إلا بإخلاص النية". المصدر السابق، (٢/ ١٤٥).

(٢) كقوله: "وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم؛ لأنَّه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم؛ لأنَّ ذلك أدخل في إمحاض النصح، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه". السابق، (٢/ ١٤٠).

العربية؛ لارتباطه بالعدول الأسلوبي، والتنوع الضمائري، والتفنن الخطابي. كما أنَّ وصف الالتفات وتوكيد الضميرين بأنَّهما خلاصة علم البيان أمر يصعب التسليم به؛ لأنَّ البلاغة ترتكز على مباحث كثيرة؛ فالإيجاز عند كثيرٍ من الأمم يمثّل خلاصة البلاغة وزبدتها؛ لأنَّه أسلوب يحقق المعنى المراد بعددٍ قليلٍ من الكلمات دون لبس أو غموض. واختصاص الالتفات باللغة العربية فيه مبالغةٌ أيضًا؛ لأنَّه أسلوب متداول في اللغات الإنسانية.

التوصيات المقترحة:

١_ معايير الحكم عند ابن الأثير: قراءة في الأصول والمنهج.

٢_ أثر الآمدي وابن سنان الخفاجي على ابن الأثير: تنظيرًا وتطبيقًا.

٣_ الاستشهاد بالحديث النبوي عند البلاغيين: ابن الأثير أنموذجًا.

٤_ المسائل النحوية والصرفية في المثل السائر لابن الأثير.

فهرس المصادر والمراجع

١) ابن الأثير، ضياء الدين، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، دون طبعة، مصر، نهضة مصر.

٢) العاكوب، عيسى بن علي، (محرم ١٩٩١م)، "**جمالية المفردة القرآنية عند ضياء الدين ابن الأثير**"، اتحاد الكتّاب العرب، المجلد ١١، (العدد ٤٤).

٣) ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: محمد علي النجار، (٢٠٠٦م)، **الخصائص**، القاهرة، المكتبة العلمية.

٤) أبو موسى، محمد محمد، (١٩٩٦م)، **خصائص التراكيب: دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، ط٤، القاهرة، مكتبة وهبة.

٥) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين.

٦) الخير، مازن موفق صديق، (٢٠١١م)، **الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني: الالتفات أنموذجًا**، ط١، بغداد، مكتبة دار البيان.

٧) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، تحقيق: محمد علي سلطاني، (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، **نصرة الثائر على المثل السائر** بدون طبعة، مصر، مجمع اللغة العربية.

٨) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (١٤١٩هـ)، **الصناعتين: الكتابة والشعر**، بيروت، المكتبة العصرية.

٩) العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني، (١٤٢٣هـ)، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق**

الإعجاز، ط١، بيروت، المكتبة العصرية.

١٠) العمري، محمد، (٢٠١٢م)، **البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول**، ط٢، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق.

١١) حمداوي، جميل وداود، بلال، **بلاغة الالتفات في الخطاب الروائي**، إربد، ركاز للنشر والتوزيع.

١٢) دوادي، زينب، (٢٠١٥م)، "**الأسس والمرتكزات البلاغية عند ضياء الدين ابن الأثير: إضاءات في مضامين المثل السائر**"، حوليات جامعة قالمة للغات والآداب، (العدد ١٢).

١٣) ذريل، عدنان، (١٩٩٧م)، "**جماليات كانت وهيجل**"، مجلة المعرفة، (العدد ١٧٣-١٩٤).

١٤) سلوم، داود، (١٩٨١م)، **مقالات في تاريخ النقد العربي**، ط١، بغداد، دار الرشيد للنشر.

١٥) طبانة، بدوي، (١٩٨٨م)، **معجم البلاغة العربية**، ط٣، الرياض، دار المنارة.

١٦) طبل، حسن، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، ط١، القاهر، دار الفكر العربي.

١٧) لوتمان، يوري، ترجمة وتقديم: محمد فتوح أحمد، (١٩٩٥م)، **تحليل النصِّ الشعري** القاهرة، دار المعارف.

١٨) مشبال، محمد، (٢٠١٧م)، **البلاغة وأنواع الخطاب**، ط١، القاهرة، دار رؤية.

Summary of the Statement Science According to Ibn Al-Atheer

Dr. Badr Ibn Taher Atturghy AlOnezy
Professor of rhetoric (Albalghah) and critique at the Northern Border University
Department of Arabic language in the Education and Art college
Northern Border University

Abstract . the key theme of this study is stemmed from a critical opinion that is scientifically decided by Diaa al-Din Ibn al-Atheer in his book *Almathal alsa'er fi adab alkateb wa Alsha'er,in English, The Propagating Proverb in the Literary Background of the Author and the Poet.* In this book, Ibn Al-atheer tackles the fourth type of morality which he named as eltifat, whose equivalent in English is attention. He states that: this type and what's after it is the essence of the science of Albayan, and what the rhetoric leans towards and is all about", and the two types that are meant by these scientific and critical features that were mentioned by Ibn Alatheer are: the attention and the emphasis by two pronouns. According to Ibn Alatheer, these two types are the essence of the science of statement, and it keeps mentioning them, and Albalaghah, which means rhetoric, is based on, and what other researches in Albalaghah are about and how they revolve other rhetoric investigations. This definitive critical judgment from a well-known scientist, an accurate rhetorician, and a significant critic deserves attention and consideration. A reconsideration of the essential principles of rhetoric reasoning, its theoretical and applied references and its methodology. Moreover, it helps explaining how far he is committed to his choices, reports, and comments.
Therefore, the focus of this study is based on investigating Ibn Al-Atheer's critical judgment and the rhetorical opinion. It also demonstrates the reasons that prompted Ibn al-Atheer to launch it and support it in his approach and choices. Moreover, in an attempt to reach the secrets of their uniqueness from the rest of the types of verbal and sentimental references mentioned in his book, this work aims at reading these two rhetorical types in a stylistic manner to highlight the approach followed, show the accuracy of the choice, and discuss the provisions contained therein. This part highlights some features of rhetorical thinking of Ibn al-Atheer and examines how consistent his method is. It also discusses the extent to which the curriculum is steady, while showing aspects of impact and influence on the curriculum, method, analysis and applied choices.
Keywords: essence, the science of statement, Ibn Al-Atheer.